التّوظيف الأيديولوجيّ في الرواية الجزائريّة
رواية " ريح الجنوب " لابن هدوقة أنموذجا

Ideological employment in the Algerian novel
A novel "Wind of the South" by Ibn Haddouka as a model

أ.د عبد الرحمان بن يطو

جامعة المسيلة

abderrahmane.benyettou@univ-msila.dz

الملخص

ظهرت إشكالية التداخل الأيديولوجي والأدبي في الرواية مع انتصار البلاشفة على الحكم القيصري في روسيا وظهور الواقعية الاشتراكية في بداية القرن الماضي ؛إذ صارت الرواية في مقدمة الفنون الأدبيّة التي تتبنى قناعات الأيديولوجية الاشتراكية لكونها تشتغل على المجتمع بكل تناقضاته أو بما يعرف في الأدبيّات الماركسيّة بالصراع الطبقي ،

وفي ورقتنا البحثية هذه نحاول أن نكشف العلاقة بين الأيديولوجيا والرواية الجزائرية من خلال القناعات الفكرية والثقافية للشخصية المركزية في رواية " ريح الجنوب " لعبدالحميد بن هدوقه .

الكلمات المفتاحيّة : الأيديولوجيا ،الواقعية ،الانعكاس،البنية التحتية، البنية الفوقية ،الجدلية، البروليتارية ، البرجوازية .

Summary

The problem of ideological and literary overlap emerged in the novel with the victory of the Bolsheviks over Tsarist rule in Russia and the emergence of socialist realism at the beginning of the last century. The novel is at the forefront of literary arts, which adopts the convictions of socialist ideology because it works on society in all its contradictions or in what is known in Marxist literature as class struggle.. In this paper we try to reveal the relationship between ideology and the Algerian novel through the intellectual and cultural convictions of the central figure in the novel "Wind of the South" by Abdelhamid Ben Haddouga.

key words : Ideology, realism, reflection, infrastructure, superstructure, dialectical, proletarian, bourgeoisie

تضطلع الشخصية المركزية في الرواية بمهام كبيرة في إدارة أحداث الرواية وتوجيهها وفق تصورات الكاتب، بل ويبقى مصير الشخصيات الأخرى مرتبطا ارتباطا وثيقا بها ، ومن خلال بناء الشخصية الروائيّة تبرز لنا عبقرية المبدع لأنها تشكل محورية الحدث فلا زمان ولا ومكان بدون حدث ولا حدث بدون فاعل أو فواعل الذي يتمثل في الشخصية ، ونستطيع القول لا رواية بدون أشخاص (1) فالشخصية هي صانعة الحدث وواجهته الأولى ومن هنا تأتي أهميتها كعلامة أو كرمزية حاملة لخطاب ذي محتوى أيديولوجيّ ، " كل ما هو أيديولوجي يملك قيمة رمزية " (2)

حرص الروائيّون على أن تكون أعمالهم الروائيّة تعكس توجّهاتهم الأيديولوجيّة كما هو الحال عند الفيلسوف الفرنسي (جون بول سارتر)،الذي كرّس أعماله الروائية والمسرحية في خدمة فلسفته الوجوديّة وتعامل مع الرواية كوجهة نظر أيديولوجيّة (3) ، ومن أكثر الأعمال الأدبية احتفاء بتوظيف الأيديولوجيا تلك التي تنطلق في قناعاتها من منظور الواقعية الاشتراكيّة بوصفها (أي) الرواية ملحمة بورجوازيّة على حدّ قول جورج لوكاتش .

ونحاول هنا ألاّ نتعامل مع الأيديولوجيا كنسق من الأفكار المنبثقة من الواقع الاجتماعي بكل إكراهاته ونتؤاته بل نتعامل معها كلحظة وعي في حركيتها التاريخيّة والاجتماعية والسياسية . وعليه جاء الحديث عن المشروع الاشتراكي كأطروحة أيديولوجيّة تتبناها النخبة السياسية التي تولّت مقاليد الحكم بعد استقلال الجزائر 1962 ، والتي تحمل شعارات براقة منها الأرض لمن يخدمها ، وتعميم التعليم ومجانية العلاج وتكافؤ الفرص بين الجزائريين ،ولكن لم تصمد هذه الشعارات اليوتوبيّة أمام عقابيل الزمن السياسيّ في الجزائر المستقلة .

وارتأيت أن أتتبّع أجزاء الصورة عن هذا الموضوع من خلال أول رواية باللغة العربية وهي رواية " ريح الجنوب " لابن هدوقة التي نشرت عام 1971 ويعدّ صاحبها من أكثر الأوفياء لهذه الأيديولوجية في أعماله الروائيّة ، ولا يمكن فهم ذلك إلا إذا تعرّفنا على المناخ السياسي التي كانت تعيشه الجزائر من خلال التحولات البنيوية الاجتماعية والسياسية والثقافية خاصة بعد ما التصحيح الثوري سنة1965 حيث عرفت الجزائر كدولة ومجتمع عدة قرارات سياسية جريئة على مستوى الواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والثقافي ،فما بين 1966 و 1969 شهدت الجزائر تأميم المناجم وشركات التأمين والبنوك والصناعات الثقيلة التي كانت في أيدٍ أجنبيّة إلى جانب ذلك استقلال القرار السياسي للدولة الجزائرية من خلال احتكار التجارة الخارجية وتأميم المحروقات في 24 فيفري 1971 وظهور ما يعرف بقانون التسيير الاشتراكي للمؤسسات ، الذي تبعه ظهور قانون الثورة الزراعية عام 1970 وهو قانون يهدف إلى إعادة الاعتبار للفلاح الجزائري بمنحه الأراضي وخلق تجمعات سكنية حديثة تضمن للفلاح كرامته كانت تعرف بالقرى الاشتراكية مجهزة بلواحقها الاجتماعية كالكهرباء والماء والمدرسة والمستوصف والطرق المعبدة وغيرها .

ففي هذا السياق السياسي والتاريخي ظهرت رواية "ريح الجنوب" التي تعالج قضية الإقطاع وتأميم الأراضي الزراعية ومناهضة تعليم المرأة والانتهازية ،وكثير من المظاهر السلبية الموروثة عن الحقبة الاستعماريّة .

اعتمد الكاتب على بيئة اجتماعية قد تكون البيئة التي ترعرع فيها الكاتب نفسه من خلال توصيف العادات والتقاليد والمشاهد الطبيعية ،كما أعرج على بعض المشاهد من الجزائر العاصمة حيث تدرس الطالبة نفيسة وهي مشاهد مناقضة تماما لحياة القرية واختار الزمن زمن التحوّلات الاجتماعية بعد الاستقلال ومن الشخصيات الروائية الطالبة نفيسة ابنة الإقطاعي عابد بن القاضي ، ومالك شيخ البلدية ،و خيرة الوالدة المسالمة ،والعجوز رحمة صانعة الفخار ،وراعي الغنم رابح منقذ نفيسة ، لكن حاول بن هدوقة أن يعتمد على الشخصية المركزية في تمرير خطابه و تصوراته الأيديولوجية طبعا يتمّ هذا كله من خلال الملفوظات والسلوكات المؤطرة أيديولوجيا والمناقضة للنسق الاجتماعي والثقافي المحافظ الذي يسود القرية وما نلاحظه في حواراتها مع والدتها خيرة تلك المرأة المسالمة والخاضعة لإرادة زوجها المتسلّط هو مؤشر آخر يفصح عن قناعات نفيسة الرافضة لمحيطها الاجتماعي .

استغلّ الكاتب الظروف الاجتماعيّة التي تعيشها الشخصية المركزية نفيسة في قريتها ، حيث البؤس والفقر والأمية والطقس الحار وحيث تعيش المرأة اضطهادا ذكوريّا قاسيا من طرف المجتمع من هنا كانت سطوة الكاتب واضحة في إرغام الطالبة الجامعية نفيسة وتوجيهها بطريقة أو أخرى إلى تبني الأيديولوجيا الاشتراكية السائدة بين النخبة الجزائرية المتطلعة إلى مستقبل واعد ؛ ثائر على رواسب الماضي الاستعماري البغيض .

انحاز الكاتب من البداية إلى البطلة وشحنها بقناعاته الأيديولوجية الشخصية والثقافية والسياسية حتى صارت مسكونة بهواجسه الثورية الاشتراكية ،طبعا تمّ كلّ ذلك من خلال جملة من الأقوال والأفعال لا تصدر عادة إلا عن فكر منتسب إلى النهج الاشتراكي الذي تبنته القيادة الجزائرية بعد الاستقلال الجزائر عام 1962هذا النظام السياسي اجتاح بعض الدول العربية ودول العالم الثالث التي كانت ترزح تحت نير الاستعمار . وقد واعدت بعض الأنظمة الاشتراكية شعوبها منذ ظهورها في بداية القرن الماضي بواقع ورديّ لم يتحقق أبدا إلى أن جاء التاريخ وأفضح هذا المشروع المترع بالأوهام من خلال سقوط جدار برلين عام 1989 ،وبعده سقوط الاتحاد السوفييتي عام 1991 .

ونحاول من خلال هذه المدونة أن تقتفي الأثر الأيديولوجي للبطلة من حركاتها وسكناتها في سياق الأحداث الروائيّة ، بحيث وجدت نفيسة نفسها مكبّلة بقيود الكاتب الأيديولوجيّة ، فالبطلة تعيش بين واقعين مختلفين واقع الريف الذي يعيش في قحط وأمية وشعوذة وبين واقع مديني في العاصمة حيث تدرس في الجامعة وما يعرف عن هذا الواقع من مظاهر التحضر والتطوّر .

وحتى يسهل الأمر على الكاتب راح يؤطّر المكان الريفي بكلّ المسلتزمات الثقافية والاجتماعية والطبيعية ليشهر ثورته الأيديولوجية من خلال شخصية نفيسة ، إذن فهو مكان رجعي متخلف ونفيسة طالبة جامعية تحمل الميول الاشتراكية الثائرة التي غرستها فيها المنظمات الطلابية في الجامعة بالجزائر العاصمة ، فهي تعيش في ثنائية الرجعي والتقدمي ،المتعلم والجاهل ،وسطوة الذكورة مقابل خنوع الأنوثة ، وانتهازية البرجوازية مقابل المد الثوري الزاحف .

ولعل من نوافل القول أن نعرج إلى عنوان الرواية (ريح الجنوب)وعلاقته بمتنه فما دلالة (ريح)وما دلالة (الجنوب)؟

والعنوان هو المنفذ الأول إلى عوالم الرواية و العتبة الأولى بمفهوم الناقد البنيوي الفرنسيّ جيرار جينيت وقد عرفه أحد المهتمين بالعنونة في عصرنا وهو ليو.هـ .هوك بقوله : " مجموعة من العلامات اللسانيّة (...)التي يمكن أن تأتي على رأس كل نص لتحدّده وتدل على محتواه العام وتغري الجمهور المقصود " . (4)

فالنصوص العنوانيّة لا تعطي بعض ما تملك إلا إذا أعطيتها كل ما تملك فبتضافر إبداع المنتج وكفاءة المتلقي نلامس الحقيقة الشعرية للعنوان ، ومن هنا ارتأيت أن أقف عند شعرية عنوان (ريح الجنوب)الذي يتكوّن من وحدتين معجميتين هما (ريح)و(الجنوب)، وقد استهل الكاتب عبد الحميد بن هدوقة روايته بقوله : " ... كانت ريح الجنوب قد سكنت ..." واختتمها أيضا بقوله : " ... وتحركت الريح .." والريح وفي القرآن الكريم لم ترد إلاّ في سياق العقاب لقوله تعالى " وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرَ عَاتِيَةٍ "(5) بينما الرياح وردت في سياق النفع لقوله تعالى " وأرسلنا الرياح لواقح "(6) ،ومن هنا تأخذ لها رمزية الثورة والعقاب الموجه لأهل الجنوب الذي يعني في الجغرافيا السياسية في العالم التخلف فشعوب جنوب الكرة الأرضية أكثر تبعية وتخلفا من شعوب شمال الكرة الأرضية . وباجتماع الوحدتين المعجميتين نحصل على : الثورة على التخلف .

إذن الريح تعني (الثورة) و(الجنوب) يعني التخلف ، أي الثورة على التخلف . تتكون رواية (ريح الجنوب)من 260صفحة من الحجم المتوسط تتقاسمها سبعة فصول كل فصل يسلمنا للفصل الذي يليه ، إذ تبدأ أحداث الرواية بعودة الطالبة نفيسة إلى بيت أهلها بالقرية قادمة من العاصمة مع بداية عطلة الصيف المملة في القرية ، فكانت العطلة هذه المرة جحيما على نفيسة التي رغب والدها الانتهازي في تزويجها من شيخ البلدية مالك المناضل السابق في الثورة التحريرية . وجاءته فكرة مصاهرة شيخ البلدية حتى يحمي أراضية من قوانين الثورة الزراعية الزاحفة على تأميم أراضي كبار الملاّك ووالد نفيسة واحد منهم . قاومت نفيسة بشدّة هذه الصفقة التي رغب والدها في إبرامها دون استشارتها ولم تجد أحدا يساندها في العائلة بما في ذلك والدتها الخاضعة لإرادة زوجها ولا تستطيع أن ترد له طلبا فطلباته أوامر ، وتفاقمت الهواجس على نفيسة وراحت تفكر بطريقة جنونيّة حتى وصل بها الأمر إلى حدّ الانتحار، لكن في النهاية اهتدت إلى طريقة أقل ضررا وهو الهروب باتجاه العاصمة حيث تسكن خالتها ، فتنكّرت في زيّ رجالي وأخذت الطريق نحو محطة القطار القريب من قريتها ولكن لسوء حظها ظلّت الطريق فوجدت نفسها تسير بين أشجار الغابة فباغتها ثعبان ولدغها وأغمي عليها ، ومصادفة عثر عليها أحد الرعاة وهو رابح الذي قدم لها الإسعافات الأولية وأخذها إلى بيت والدها أمام حالة من الإحباط واليأس

اجتهد بن هدوقة في بناء شخصية نفيسة أيديولوجيا فهي طالبة جامعية والجامعة بعد الاستقلال كانت مؤسسة أيديولوجية أكثر منها مؤسسة علمية أكاديميّة ، فتشبّعت بأفكار لم تعهدها من قبل أفكار تبعث على التّحرّر من الدين

والعادات والتقاليد وتدعو إلى التساوي بين الجنسين وترى الأخلاق إنتاج اجتماعي يمكن تجاوزه والاستغناء عنه ، كل ذلك برعاية الدولة الجزائرية التي تبنت النهج الاشتراكي كنظام سياسي للجزائر المستقلّة ،فكان يروّج للأيديولوجية الاشتراكية في أوساط الشباب الجامعي الذي ينظر إليه على أساس أنه طليعة المجتمع وقائد لواء المشروع النّهضويّ الذي تطمح إليه الجزائر الواعدة . وانطلاقا من أحداث الرواية نحاول الوقوف على المؤشرات الدالة على الميول الاشتراكية الماركسية للشخصية المركزية من خلال تتبّع أقوال نفيسة المناهضة للقيم الاجتماعية ، فوراء كلّ سلوك دافع كما يقال عند علماء النفس ففي قولها مثلا وهي تتحدث عن علاقاتها بزملائها في الدراسة : " أصدقائي الطلبة ؟ هم يريدون من الفتاة كل شيء إلا الزواج" (7) ،فما نلاحظه أن لفظ (أصدقائي) من المحظورات في المجتمع الجزائري وخاصة المجتمعات الريفية .يضاف إلى ذلك تتحدث عن موضوع هو من التابوهات فالحديث عن العلاقة الحميمية مع الرجال خارج مؤسسة الزواج قد يؤدي إلى القتل أحيانا في المناطق الجزائرية . وفي موقف آخر تقول لها والدتها معاتبة : " لو كنت تصلين يا نفيسة لما شعرت بهذا الضيق " (8) ، إن عدم إقبال نفيسة على الصلاة متأت من قناعة فكرية وليس من انحراف سلوكيّ فهي وأمثالها ترى الدين أفيون الشعوب كما وصفه كبيرهم كارل ماركس ، وقالت نفيسة معقبة على كلام أمها وبذلك فهي تفصح عن موقفها : " الصلاة .. لا يعرفون هنا إلا الصلاة والموت أما الحياة فهي وساوس الشيطان " (9) ، وفي لحظة انفعالية قالت بصوت عال : " لا أصلي " (10) ،كانت نفيسة دائما تحاول مقاومة الضجر والروتين الذي طوّقها في هذا البيت فراحت تطالع كتابا لأحد الكتاب الروس وهو ما يتناغم مع الأيديولوجية التي تتبناها " هنا لا وجود للأخوة كارامازوف" (11) وتعني بذلك الكاتب الروسي العالمي فيدور دوستوفسكي ،و بشيء من التحدي للقيم الدينية تقول : " فالسموات لا تضمن شيئا (12) وتمعن نفيسة في انتقاد المجتمع القروي الذي تعيش فية وفي معاملته للمرأة بطريقة دونية لا تمت بصلة إلى الدين ولا للقيم الإنسانيّة " كأن المرأة مخلوق شاذ يجب ألا يعامل معاملة الأسوياء ... الخروج عيب .. الضحك عيب ... الحديث مع الرجال عيب ... التجميل عيب ... عدم القيام بكرة عيب ..عدم الصلاة عيب .. كل شيء عيب .. " (13) وكأن نفيسة تحينت الفرصة لتفرغ جامَ غضبها وتفصح عن هويتها الفكرية والأيديولوجية الثائرة .

ومن الدلالات التي أشار إليها الكاتب على لسان العجوز رحمة صانعة الفخار وهي تصف جمال نفيسة " وهذه الخصلة الكثيفة الناعمة المرسلة على الجهة اليسرى من الصدر"(14) ولفظ يسرى ليست دلالة مجانية ؛ ومنها قولنا يساري بمعنى ماركسي وهذا ما هو متعارف عليه في الأدبيات الأيديولوجية الماركسيّة . وفي موقع آخر تقول تصريحا وليس تلميحا :" الدين أيضا له كلمة في الملبس عليها أن تلبس (المرأة) أثوابا لا تسمح للنور بملامسة جزء من ساقيها أو ذراعيها أو صدرها " (15) ، وهو انتقاد صريح لا لبس فيه للحجاب الشرعي الذي تناهضه الأفكار ذات التّوجه الشيوعي والعلماني ، ومن خلال تصريحها الموالي نعرف الهياكل السياسية والثقافية التي كانت من وراء تشكيل شخصية نفيسة

السياسية والفكرية ؛ هذه المؤسسات التي كانت ترعاها الدولة ماديا وسياسيا ففي قولها : " فلا فرع هنا للمنظمة النسائية ولا لشبيبة الحزب ولا لغيرها .. " (16)

وحين أرادت توصيف أم رابح راعي الغنم قالت عنها : " فتصورتها تشبه إلى حد ما إحدى بطلات قصص ديستوفيسكي "(17) ،وفي انتقادها لطريقة توزيع المواريث في الشريعة الإسلامية : " هذه المرأة التي في الإرث لها نصف حظ الرجل وفي الحياة لاحظ لها معه مطلقا " ،هنا حصرت الدين في تصرفات الناس وسلوكاتهم وليس في كتاب منزه بحيث تشهر بمظلومية المرأة وما لحقها من حيف من المجتمع في حقها في الميراث والحقيقة أن الدين نص ولكن الناس يؤولونه وفق منظوراتهم ومنفعتهم الخاصة " ثم أن المرأة لم تعطها القوانين السماوية والوضعية حقها كاملا "(18) . هذه المقولة يراهن عليها المشروع النسوي الذي يطالب بالمساواة بين الرجال والنساء في تحدّ للشرائع السماوية بينما المطلوب هو تصحيح الأفهام الخاطئة التي لحقت بالمرأة عبر العصور باسم الحداثة والتطوّر فالأصل العلاقة بين المرأة والرجل هي علاقة تكامل وليس علاقة تنافر ،حتى الحضارة الغربية التي أبهرت العالم بتطوّرها المادية لكن بقيت في الجانب الإنساني والأخلاقي في خطواتها الأولى بدليل أنها تعامل المرأة كمادة وتراهن على جسدها لا غير فهي فالمرأة عندها مادة استعمالية لحاجة ذكورية .

الإحـــــالات :

(1). يمنى العيد ، تقنيات السرد الروائي، (في ضوء السرد البنيوي)، دار الفارابي،ط2،لبنان،بيروت،1999،ص68.

(2). M.Bakhtine:Le marxisme et la philosophie du langage (genèse et structure de sociologie),1967 P:27 [ ]

(3). حميد لحميداني :النقد الروائي و الأيديولوجيا – من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي– المركز الثقافي العربي،ط1، 1990م، ص59 – 62.

(4). ينظر: عالم الفكر، شعرية عنوان الساق على الساق فيما هو الفارياق،عبد الهادي المطوي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت،مجلد28،العدد1، يوليو،سبتمبر1999،ص455.

(5) . الحاقة 7 الآية :7

(6). الحجر الآية : 22

(7). ريح الجنوب،عبد الحميد بن هدوقة ،المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر (د.ت) ، ص9 .

(8). الرواية ،ص 12.

(9). الرواية ،ص13 .

(10). الرواية ، ص13.

(11). الرواية ،ص13 .

(12) . الرواية ، ص13.

(13). الرواية ،ص36 .

(14) . الرواية ،ص88 .

(15). الرواية ،ص174 .

(16). الرواية ، ص88 .

(17). الرواية ،ص202

(18) . الرواية ، ص174